مجلة تراث الإنسانية
المجلد السادس - العدد الرابع
١٩٦٨م

مجموعة أعمال باكونين لميخائيل باكونين

بقلم: الأستاذ فؤاد شبل

١٩٨٢/١٠/٢

نشرت أعمال باكونين لأول مرة باللغة الروسية فى خمسة أجزاء خلال الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٢٢ ثم نشرت طبعة لها بالألمانية فى ثلاثة أجزاء خلال الفترة من ١٩٢١ الى ١٩٢٤ وأخيرا ظهرت طبعة فرنسية تقع فى ستة أجزاء تحتوى على ٢٤٩٧ صفحة • والترجمة الأخيرة عمدة الباحثين فى آثار باكونين الفكرية• وفى عام ١٩٥٣ طبعت الولايات المتحدة مختارات من أعمال باكونين وبخاصة فلسفته السياسية فى مجلد أشرف على اعداده G.P. Maximoff

١ ــ حياة باكونين

يعتبر ميخائيل الكسندروفيتش باكونين أبا الحركة الفوضوية الروسية وأقوى شخصيات الحركة الفوضوية نفوذا وأعظمها تأثيرا • وانه لأول مثقف روسي استثارته المعرفة الألمانية فانجرف بكلياته بين لجج الحركات الثورية فاستحال الى ثورى محترف • ويعتبر كذلك أول روسي يتفهم الثورة الاجتماعية على أساس عالمى شامل وعلى نطاق دولى ، فانه لم يسلم قط بوجود تعارض فى الاهداف بين الثوريين القوميين الأوربيين من ناحية وللثوريين السلاف داخل الامبراطورية الروسية التى كان يطلق عليها سجن القوميات الكبير من الناحيه الاخرى •

ولم يستطع مفكرو عصره تجاهل شخصيته الفذة • فاذا كانت آراؤه قد بثت فى قلوبهم الرعب فانها فتنتهم بما يكتنفها من غموض وسحرهم تناقضها وخلب ألبابهم مضمونها الديناميكى • أما موقف الجماهير تجاهه فقد أضفى هروبه من سجنه فى سيبريا وجهاده العجيب ضد الفقر والمرض هالة من التقديس فى قلوب المعجبين به وبخاصة فى أمريكا اللاتينية • والحق ان الدور الذى أداه باكونين كمغامر أو شهيد (كما يرى أتباعه) ليفوق كثيرا نصيبه من الفكرة السياسية والاجتماعية •

والد باكونين فى ١٨ من مايو ١٨١٤ بمقاطعة نوفوتورشك Novotorschock من أعمال اقليم تفير Tver • وكان جده ميخائيل فاسيليفتش

باكونين مستشار دولة ونائب رئيس المجمع العلمي في عهد الامبراطورة كاترين الثانية • والتحق ولده الثالث الكسندر ميخائيل باكونين بجامعة بادوا بايطاليا ليحصل على درجة دكتور في الفلسفة • والتحق بخدمة السلك الدبلوماسي الا أنه استقال بعد فترة ليتولى ادارة ضيعة والده • وأنجب أحد عشر طفلا كان ميخائيل ثالثهم • ولم يؤد الكسندر باكونين في حياته دورا سياسيا الا كمستشار لطائفة من الجمعيات السرية التي انبثقت عن ثورة الديسمبريين • لكن كانت تطرق مسامع ميخائيل ابان طفولته أحاديث عن ثورة الديسمبريين • وهكذا نشأ في غمار ثورة فاشلة ضد الطغيان القيصري وفي ظل عسف الارستقراطية (وكانت عائلته منها) بجمهرة الشعب الروسي المستعبد •

ولا شك أنه كان لحداثة ميخائيل باكونين وصلاته بمحيطه العائلي أثر جوهري في تكوينه الفكري • ويتضح هذا للباحث من خلال مطالعته رسالته « حداثة ميخائيل باكونين » وغيرها من المراجع التي كتبها أو كتبت عنه • وبرغم أنه قد سما على بيئته وتفوق عليها تماما فانها هي التي جهزت أساس حياته العملية وزودته بالدوافع وصاغت متجه عمله •

أما طبيعته الشخصية ؛ فكان لها تأثير عجيب على أوجه نشاطه العملية : فاتصف بالنشاط الجم وكان يستوعب ما يقرأه ويسمعه ويستفيد من مشاهداته • فكان والده ـ بالرغم من نزعته المحافظة ـ متأثرا قلبا وقالبا بالآراء الانسانية للمفكرين الموسوعيين وبأفكار جان جاك روسو، وكان يبث آراءه في نفوس أبنائه وبناته •• واتسمت حياة عائلته بالهدوء والوداعة وحب الاطلاع والاتجاه صوب الروحانيات • فانتصب أمام عينيه ـ من ثم ـ الأنموذج الذي منه استقى جميع تنظيماته ، واقتبس فكرته عن حياة رخية متحررة • وأمضى صباه في بيئة تخلو تماما من المشكلات الاقتصادية ، في ظل عيشة ريفية تنعم بجمال الطبيعة ، يسود التعاون والتآزر أفراد مجتمعه الصغير • ومن هذا الكون المصغر ، استمد باكونين نزعته الانسانية وقوامها أن يحب الانسان لأخيه الانسان ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها وأن يهب الآخرين ما يناله من خير •

وبالأحرى ؛ زرعت بيئته في عقله بذور الصراع الذي وهبه حياته بأسرها ، لتشييد عالم تتوحد فيه الحرية مع التضامن ، وتمتزج الفوضوية والاشتراكية ، وتلتحم القواعد بالحرية الروحية •

بيد أن هذه الصورة المغرقة في المثالية ، التي رسمها للمجتمع البشري ، تشوهها رغبة ملحة رسخت في ذهنه ، هي الرغبة في تدمير المجتمع القائم بوساطة الثورة : وهي رغبة تفسرها تجارب حياته والأحداث التي عركته • وسيطرت عليه منذ حداثته فكرة أن يؤدي دور « رجل الفعل » وأن يهيمن على الناس بقوة آرائه • كذلك استكشف أن الفكرة تغدو شيئا عقيما ان لم تسيرها قوة الارادة • وهذا مانطالعه في رسالة حررها لصديق عام ١٨٣٣ اذ قال : « الارادة جوهر الانسان الأساسي ، وذلك وقتما تنيرها الأشعة المقدسة للفكرة والاحساس » •

وفي ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٢٨ أوفد باكونين الى سانت بطرسبرج ليلتحق بمدرسة المدفعية ، وأمضى بها ثلاثة أعوام • لكنه فشل في الاختبارات فشلا ذريعا فعاقبته ادارة المدرسة

فعينته للخدمة على الحدود البولندية الليتوانية حيث أمضى هناك فترة عانى خلالها الأمرين من الوحدة والضجر مما أثر على نفسيته تأثيرا قاسيا، لكنه لم يعمد كغيره من رفاقه الضباط للهروب من واقع الحياة الأليم بالانكباب على معاقرة الخمر والانغماس في الميسر والنساء. فالحق ؟ لم تصرفه أية نزوة عن القراءة والاطلاع .

وعاد لزيارة عائلته فألفى حياتها تتصدع وتتهاوى لاصرار شقيقته الكبرى على الانفصال عن زوجها ، فانضم الى صف أخته وحارب بقية الأسرة حربا لا هوادة فيها تعتبر أولى محاولاته لاختبار شدة مراسه . وهكذا ؟ تبدد من ذهنه وهم الانسجام العام والهناءة العائلية. وفي ديسمبر ١٨٣٥ ؟ فصل من خدمة الجيش لتظاهره بالمرض ورفضه الالتحاق بوظيفة مدنية مؤثرا الانكباب على دراسة الفلسفة . ويعتبر عزوفه عن الوظائف الحكومية ارهاصا بانغماره في دنيا الثورات والمؤامرات .

ولقد بذل والده جهودا مضنية لكي يجعله يسلك في الحياة السبيل الطبيعي المألوف. فبعث اليه برسالة قال فيها « تلقيت رسالتك من موسكو وعلمت أن رأسك لا تزال تعاني نفس الحمى وأن قلبك مغلق ... لا تتألف الفلسفة الحقة من نظريات خيالية وكلمات طنانة منمقة ، لكن قوامها تعهد التزامات الحياة تجاه العائلة والمجتمع. انك تتناسى هذه الواجبات لجريك وراء الأوهام والأساطير . وانك تخرف بعبارات جوفاء راجيا أن تعزيك عن فقدانك كل شيء .. ألا انك لا تدرك كيف تفر من نفسك . الطريق أمامك لا يزال مفتوحا لتدلل على أن قلبك ليس ميتا .. اطرح الماضي عن كاهلك واطع والدك الضرير عوضا عن قلبك الأعمى » .

ولم تحرك هذه الرسالة الأبوية المؤثرة شعرة من رأس باكونين ، بل لقد زادته تشبثا بفكرته القائلة بتدمير سلطان الأسرة على الأبناء . واذ أخفق في كسب أوده ، طفق يعيش على كرم أصدقائه الخيرين .

وانتقل باكونين الى سويسرا حيث أخذ يمارس نشاطه الثوري ، فلفت اليه أنظار البوليس الروسي . وتدخلت الحكومة الروسية عن طريق سفيرها في برن ، وطالب باكونين بالعودة الى بلاده فورا.ولم يستجب باكونين بالطبع وارتحل الى بروكسل حيث تلاقى لأول مرة في حياته مع المهاجرين البولنديين . ثم انتقل منذ عام ١٨٤٤ للاقامة بباريس والتقى فيها بكثير من الاشتراكيين وغيرهم من رجال الفكر والأدب والسياسة الفرنسيين وفي طليعتهم « برودون » الذي اجتذبته اليه آراؤه وشخصيته ، كذلك أعجب هذا بباكونين . ولقى كذلك في باريس كثيرا من زوارها الروس والبولنديين والايطاليين وغيرهم .

وبالرغم من حياته الحافلة بالنشاط بباريس خلال السنوات ١٨٤٥– ١٨٤٧ ، لم يكن باكونين سعيدا لشعوره بأنه أكثر من الآخرين انعزالية : فلقد افتقر الى فكرة واضحة عن المستقبل، وألفى الحركة الاشتراكية تنقسم على نفسها الى عديد من الكتل يعادي احداها الأخرى ويطعن في آرائه ، وكانت الحركة قليلة الحظ من الأتباع وتحيا حياة مصطنعة عن طريق اصدار الكتب وتحرير المجلات وعقد ندوات قوامها جماعات

صغيرة العدد • ولم ينضم باكونين الى أية جماعة اشتراكية ؛ اذ لم تجد آراؤه عن الاشـــتراكية صدى لدى أية جماعة ، كما عجزت كل جماعة عن صياغة مبادئها صياغة محددة •

ووجد باكونين في « برودون » ضـــالته المنشودة ، فاستقى من آرائه جانبا من اشتراكيته: فان برودون وحده قد اعتنق فكرة بلوغ الحرية الكاملة والغاء الدولة تماما دون اعادة بنائهـا في شكل جديد • وأقامت هذه الفكرة رباطا روحيا بين باكونين وبرودون وان اختلفا بالنسبة لطائفة من التفصيلات •

وفي ديسمبر سنة ١٨٤٤ ؛ اقترح القيصر نيقولا الأول على مجلس الشيوخ اصدار قانون يجرد باكونين من كافة حقوقه المدنية ويصـادر ممتلكاته ويخرجه من طائفة النبلاء ويحكم عليه بالنفى الى سيبيريا مدى الحياة ان قبض عليـــه داخل الحدود الروســـية • فاندفع يوم ٢٧ من يناير سنة ١٨٤٥ يكتب رسالة عن هذا الموضوع الى صحيفة « الاصلاح » الفرنسية عبر فيهـا عن آرائه عن أحوال روسيا في ظل القيصرية • وفى ١٩ من مارس ســـنة ١٨٤٦ كتب لصـــحيفة « الدستورى » مقالة يشجب فيها المظالم القيصرية ضد البـــولنديين • ثم سعى بعد ذلك لمشاركة اللجنة المركزية الديمقراطية البولندية أعمالهـا الثورية ، وهدف من وراء ذلك الى اشعال الثورة داخل روسيا نفسها وتأسيس جمهورية فيدرالية تضم جميع البلاد السلافية • ولم يستجب لآرائه الثورية أصدقاؤه الروس المقيمون بباريس• وفى ١٩ من نوفمبر سنة ١٨٤٧ ألقى خطـــابا خطيرا دعا فيه لاجراء مصالحة بين الروس والبولنديين لتوحيد جهود الفريقين ضد القيصرية• وخشيت الحكومة القيصرية عواقب نشاط باكونين الثورى فطالبت الحكومة الفرنسية بطرده ، فذهب فى١٩ من ديسمبر الى بروكسل التى كرهها وأهلهـــا كثيرا، وقابل هناك الكثير من البولنديين والروس. وفى ١٤ من فبراير سنة ١٨٤٨ تكلم مرة أخرى في اجتمـــاع دعا فيـــه لتمكين الصـــلات بين الديمقراطيين الروس والبولـنديين ، وتكلم عن المستقبل العظيم الذى ينتظـــر العنصر السلافى وأهاب بالسلاف أن يتحدوا لتحطيم الامبراطورية النمســـوية • وحاولت السفارة الروســـية فى بروكسل تدمير سمعته بنشر شائعات تقول بأنه عميل للحكومة الروسية تجاوز حـدود الأوامر الصادرة اليه ، وأضرت هذه الشائعـات بباكونين كثيرا اذ ألقت على جهوده ظلالا من الشك ظلت تتابعه بقية حياته •

واستبدت الفرحة بباكونين اذ بلغته أنبـاء ثورة باريس عام ١٨٤٨ ، وعبر عن فـــرحته الطاغية بمقالة ضافية نشرتها صحيفة « الاصلاح » في ١٣ من مارس ســـنة ١٨٤٨ • ولكن شـــد ما أحزنه أن أحداث باريس الثورية لم تجـــد لها صدى فى روسيا وغيرها ، واشـــتد كربه اذ نجحت القوى المناهضة للمد الثورى فى قمـــع ثورة المجر ١٨٤٩ • وارتحل الى ألمانيا فتنقـــل بين بادن وفرانكفورت وكولونيا ، الى أن ألقت به عصا التسيار فى برلين حيث حال البوليس بينه وبين السفر الى « بوزين Posen» فيمم وجهـــه شطر ليبزج وبرسلاو حيث تقابل مع كثير من البولنديين • وواصل رحلته الى براج فأم المؤتمر السلافى وأسهم فى أعماله بجهود ملحوظة • وفى يونيه ١٨٤٨ اندلعت ثورة بتلك المـدينة عمـــد باكونين الى تأجيج نيرانها لكنها أجهضت فآب الي

برسلاو وبرلين فطرده البوليس من بروسيا وساكسونيا • لكنه وجد ملاذا طيبا بولاية « انهالت Anhalt » وكانت وقتذاك واحة اخريه فى المانيا •

وما كان باكونين ليطيب عيشا فى دنيا الاستقرار • فلم يلبث سوى القليل حتى راح ينتقل من بلد الى اخر سعيا وراء المغامرات وجريا خلف الانتفاضات الثورية • فشارك فى ثورة ساكسونيا (مايو ١٨٤٩) وقبض عليه واودع السجن حتى ١٣ من يونيه ١٨٥٠ • ثم رحل الى النمسا حيث قيد فى الاغلال الثقال فى زنزانة ضيقة • وأمضى عاما رحل بعده الى روسيا حيث أودع السجن الانفرادى بقلعة بطرس وبول فى سانت بطرسبرج • وفى أغسطس سنة ١٨٥١ أوفد اليه القيصر الكونت أورلوف وطالبه بكتابة اعتراف كامل عن جرائمه السياسية والاقرار باندفاعه نحو التآمر • وصدع باكونين وأهله ذلك الاعتراف لينقل الى سيبريا الشرقية • لكنه تمكن عام ١٨٦١ من الفرار الى أوروبا عن طريق اليابان والولايات المتحدة • وكرس نفسه طوال بقية حياته للدعوة لمذهبه وللثورة واستثارة الجماهير ضد حكوماتها وحبك المؤامرات لاقتلاع النظم الملكية عن عروشها • ووجد صدى لآرائه فى ايطاليا واسبانيا والبرتغال وفرنسا •

وفى عام ١٨٦٦ ترأس باكونين التحالف الاشتراكى الديمقراطى ونافس كارل ماركس على زعامة الدولية العمالية ، لكن انتصر ماركس عليه وتمكن من طرده وأتباعه • ويعتبر باكونين وأشياعه ملهمى حركة كوميون باريس عام ١٨٧١ وزعمائها • ولا يرقى اهتمام باكونين بشئون بلاده السياسية الى حماسته البالغة بالتطورات السياسيه لاوروبا الغربيه • بيد انه انضم الى جماعه « الارض والحريه » عند تاليفها لاول مرة عام ١٨٦٢ ، لما ساند حركه العصيان البولندى ضد النظام القيصرى عام ١٨٦٣ وامسلنه ان يجتذب الى حظيرة ارائه كثيرين من اتباع مذهب الشعبيين الذى نادى بالاصلاح الزراعى اساسا ، فى حين ناشد باكونين الفلاحين اللجوء للعنف لاستخلاص حقوقهم السياسية والاجتماعية عنوة واقتدارا من الدولة ومن الاقطاعيين • اذ كان من رأيه أن الفلاحين لا تعوزهم الدعاية النظرية لمواجهة ملاك الارض ، فانهم على استعداد فى جميع الأوقات لرفع راية العصيان المسلح ضد أعدائهم ، وما على الثوريين الا أن ينفخوا فى الرماد ليحيلوه الى نار موقدة •

وبالرغم من اخفاق مؤامرات باكونين وفشل الثورات التى أسهم فى اندلاع أوارها ، فقد انتشرت خلايا مذهبه فى جميع أنحاء روسيا ووجدت آراؤه صدى فى كثير من البلاد • وتكمن مأساة باكونين فى حيازته قدرات دفينة لم يتح له استخدامها فى وطنه استخداما مثمرا • وأسلمته هذه القدرات الى الافساد ، فكان أن نردى فى مهاوى التطرف الذهنى • ولقد تقبل تحليل ماركس الاجتماعى وشاركه الايمان بضرورة تدمير الدولة ، لكنهما يبتعدان بعد ذلك بُعد السماء عن الأرض • فباكونين ـ مثل ماركس ـ يعتبر الاستغلال شرا ، لكنه يؤمن بأنه جزء من شر أبشع يتمثل فيما يطلق عليه « الطغيان » ويقصد به السلطة بجميع مفاهيمها سواء صدرت عن اله أو عن انسان • وانه ليعتبر الفوضوية والالحاد اصطلاحين يكمل أحدهما

الآخر • ويناهض أية خطة أو تنظيم مهما يكن من أمر مصدره • وهذه آراء استثارت غضب ماركس وحنقه ، فانه ـ كألماني ـ يتعشق النظام ويطالب الناس بالتزام القواعد حتى فيما يتصل بالثورة • ومن ثم استحال على الرجلين التعاون في أية صورة من الصور • وسار باكونين في تيار مغامراته التي ساقته الى سيبريا ومنها الى كثير من بلاد العالم الاخرى •

وفي سبتمبر سنة ١٨٧٣ أعلن باكونين اعتزاله المسرح السياسي محتجا بسوء صحته • وفي رسالة بعث بها في ١٥ من فبراير سنة ١٨٧٥ الى زميله فيالفوضوية «اليزيه ركليوس» أنبأه باعتزامه تكريس جهوده لدراسة « تطور مبدأ الشر واستفحال أمره في أنحاء العالم بأسره» وأنه ـ أي باكونين ـ قد نفض يديه من الثورة[1] •

ولم يعش باكونين بعد ذلك طويلا اذ توفى أول يوليه من عام ١٨٧٦ •

٢ ـ ماهية عقيدة الفوضوية

أجدر بنا أن نعرض لماهية عقيدة الفوضوية وكنه فلسفتها ، ليتيسر استجلاء المنحى التفكيري لباكونين قطب هذه العقيدة ودعامة صرحها الفعلي •

الفوضوية الفلسفية قديمة العهد ، بل انها في ظني قديمة قدم فكرة الحكومة • ومهما يكن من الأمر ؛ فثمة مؤلفات يرجع العهد بها الى ٢٥٠٠ سنة لا تقتصر على وصف المجتمع البشري من غير حكومة أو قوة ملزمة أو قانون مقيد ، بل تصف علاقات اجتماعية تخلو من القيود والحدود تماما • ففي كتاب من تأليف «أوفيديس» يصف في صورة شعرية جذابة مجتمعا طوباويا فوضويا يخلو من القانون ولا يخضع الفرد فيه الا لما تمليه عليه ارادته ويتفق وضميره ، وينعدم الخوف من العقاب •

ويطلق لفظ الفوضوية على مجموعة من الآراء تنحو في جوهرها لتوكيد حرية الفرد الى أقصى الحدود ومساواة الناس بعضهم بالبعض الآخر • ويتفرع عن هذا الرأي الاعراض عن كافة ضروب النشاط السياسي واتجاه الفرد بكلياته صوب النشاط الاقتصادي • كما يتضمن المذهب الفوضوي شجب الديمقراطية البرلمانية لاستنادها على مبدأ التصويت العام بما يعنيه ذلك من الحيلولة دون ممارسة الفرد حقوقه اذ يعهد بممارستها لغيره ، وفي هذا ما فيه من اضعاف معنى المسئولية •

وتكاد آراء الباحثين تتفق على أن الفوضوية تيار ثقافي لفكرة اجتماعية تستند على المناداة بأن تلغى من المجتمع الاحتكارات الاقتصادية وجميع التنظيمات السياسية والاجتماعية الالزامية • فعوضا عن النظام الاقتصادي الرأسمالي ، يشيد أتباع الفوضوية اتحادا حراً يضم كافة قوى الانتاج التي يجب أن تستند على العمل التعاوني الذي يجعل نصب عينيه اشباع الاحتياجات الأساسية لكل عضو في المجتمع • ويطالب الفوضويون بالغاء الدول الاقليمية من المجتمع العالمي والقضاء على التنظيمات السياسية والبيروقراطية وأن يحل محلها اتحاد من جماعات يترابط احداها بالأخرى عن طريق مصالحها الاجتماعية والسياسية المشتركة ، وتتولى تنظيم

(١) صفحة ٢٠٤
K.G. Kenahick : Michael Bakunin.

شئونها على أساس اتفاق حر طليق من القهر والعسف •

وتتفق الفوضوية مع المذهب الحر (الليبرالية) في الرأى القائل بأن سعادة الفرد يجب أن تكون قطب رحى السياسات الاجتماعية• كما تتفق مع أقطاب ممثلى فكرة الحرية في الناحية المتصلة بحصر مهام الحكومة في أضيق الحدود• لكن دفعت هذه الفكرة أتباع الفوضوية الى التطرف الشديد حتى لقد نادوا بابعاد كل تنظيم للسلطة السياسية من حياة المجتمع • فبينما اتخذ أصحاب مذهب الليبرالية شعار قول الرئيس الأميركى جيفرسون « أفضل الحكومات ما حكمت في أضيق الحدود » اعتنق الفوضويون قول ثورو Thoreau « أفضل الحكومات من امتنعت عن ممارسة الحكم بتاتا » •

ومن الناحية الأخرى ؛ يتفق مؤسسو الاشتراكية مع الفوضويون في المطالبة بازالة الاحتكار الاقتصادى في جميع صوره وأشكاله • كذلك يناصر الفريقان فكرة ملكية المجتمع للأرض ولجميع وسائل الانتاج الأخرى ، على أن يتاح الانتفاع بها للجميع دون تمييز • ويدلل الفريقان على صحة رأيهما بأنه لن تتأتى كفالة الحرية الشخصية والاجتماعية الا بفضل اقامة أساس مكين من الفرص الاقتصادية المتكافئة لكل فرد • لكن من رأى الفوضويين أن الصراع ضد الرأسمالية يجب أن يغدو في نفس الوقت صراعا ضد جميع التنظيمات السياسية الالزامية الطابع• اذ تثبت أحداث التاريخ أن الاستغلال الاقتصادى يسير جنبا الى جنب مع العسف السياسى والاجتماعى : فلا يتأتى فصل استغلال الانسان للانسان وسيطرة فرد على آخر ، لأن وجود أحدهما شرط لبقاء الآخر •

وثمة ناحية أخرى تتشابه فيها الفوضوية مع الاشتراكية حتى ليمكن اعتبارها - أى الفوضوية - اشتراكية اختيارية : اذ ترى الاشتراكية والفوضوية أنه طالما أنالمجتمع ينقسم الى فريقين أحدهما يملك والآخر محروم من الملكية وينابذ أحدهما الآخر ، فلا مناص من قيام الدولة لحماية مصالح الأقلية التى نملك • فان اختفى التمايز من المجتمع ، حل محل حكومة الاشخاص ادارة الشئون الادارية والاجتماعية أو بتعبير المفكر الفرنسى سان سيمون «يحين الوقت الذى يختفى فيه فن حكم الناس ويقوم مقامه فن جديد هو فن ادارة الأشياء » •

بيد أنه اذا كانت الفوضوية ترى في الغاء الدولة شرطا لازما لكفالة الحرية الحقيقية ، فان الماركسية تنادى بضرورة أن يسبق الغاء الدولة - وهو غاية الغايات عند الماركسية - مرحلة أساسية توجد فيها الدولة على هيئة ديكتاتورية البروليتاريا ، وتتولى الدولة في صورتها هذه استئصال جميع المنازعات الطبقية ثم الطبقات ذاتها • فان انجزت دولة البروليتاريا هذهالرسالة تولت حل نفسها • ذلك لأن الفوضوية تفترض بأن كل شكل من أشكال السلطة السياسية يضم بين طياته وسيلة من وسائل استعباد البشرية • فكما أن الدولة تفتعل المنازعات الدولية لتبرير بقائها دوليا ، فكذلك يصطنع القائمون عليها حجج بقائها داخليا عن طريق شرخ المجتمع وتفتيته الى طبقات وفئات •

وتنكر الفوضوية الفكرة الاشتراكية • ذلك لأن الاشتراكية ترى في المساواة الاقتصادية عماد التحرر الاجتماعى ودعامته • ولكن السجين

أو المعتقل ـ كما تقول الفوضوية ـ يحصل على قسط موفور من الطعام والسجن والترفيه بالمجان. ويوفر الحكام الطغاة أسباب العيش المادى الكريم للمحكومين ؛ لكن هذه الهناءة المادية لا تحجب ألوان العسف والطغيان التى يرزح تحتها المواطنون بحيث يصبحون فى ظل هذه المتعة المادية مجرد آلات لارادة مسيطرة لا معقب لأحكامها • ويؤدى هذا بأحد أئمة الفوضوية « برودون » الى أن يعتبر الاشتراكية بدون حرية شكلا من أسوأ أشكال الاستعباد : اذ يجب أن تنبعث العدالة الاجتماعية من احساس المرء بالحرية والمسئولية •

فالفوضوية ـ من ناحية المبدأ ـ تنبذ كافة المناهج والاراء الغير المحدودة : فهى لا تؤمن بأية حقيقة مطلقة ، ولا تعتقد فى غايات نهائية محددة للتقدم البشرى • ذلك لانها لا تؤمن الا باكتمالية غير ذات حدود للأنماط الاجتماعية وللأوضاع البشرية القائمة • وبالتالى ، لا يتاتى تعيين هدف محدد أو وضع نهاية ثابتة • وأبشع شرور السلطة ـ أية سلطة ـ لدى الفوضوية ، ما تعمد اليه السلطة دائما من حصر تنوع الحياة الاجتماعية فى قوالب ثابتة ، وسعيها لتقويم الغزارة المشاهدة فى هذه الحياة وفق أنماط تعينها السلطة ذاتها• ويعتبر أتباع الفوضوية النظم الديكتاتورية الجماعية الطابع أبشع أشكال السلطة : اذ يهيمن جهاز الدولة السياسى هيمنة تامة على العقل والجسم ، وتحجب الآلة الحكومية منطق الفكر البشرى ، وتحجب البيروقراطية المشاعر والأحاسيس الانسانية ؛ وفى هذا كله نهاية الثقافة الذهنية الرفيعة •

فالفوضوية لا تقر الا بالمضمون النسبى للآراء والنظم والأوضاع الاجتماعية • وبالتالى ؛ لا يمكن اعتبارها نظاما اجتماعيا موطد الأركان ثابت الدعائم • فانها فى حقيقة الأمر أقرب لأن تكون متجها محدودا فى تاريخ تطور البشرية ، ينزع صوب تحرير الطاقات الفردية والاجتماعية • بيد أن فكرة الحرية ذاتها نسبية الطابع وليست مطلقة ؛ اذ لا تعتبرها الفوضوية فكرة فلسفية مجردة • لكن فكرة الحرية تكمن فى قدرة كل انسان على تسخير جميع الطاقات والمواهب التى منحته الطبيعة اياها والعمل على افادة المجتمع منها • وكلما وجدت حيوية الانسان مجال فعلها طلقا وضمرت سيطرة الهيئات الدينية والسياسية على أفعاله ، ارتفعت الكفاية البشرية وترعرعت الارادة الانسانية • وينبنى على ذلك ازدهار ثقافة المجتمع الذى ينشأ فى معتركه الفرد • ويبرهن باكونين وأتباعه على صدق فكرتهم بانبعاث الازدهار الثقافى خلال تلك الفترات التى ضعفت خلالها النظم السياسية • فالدولة والثقافة ـ كما تدعى الفوضوية ـ قطبان مختلفان وصنوان لا يجتمعان • ويستدل الفوضويون على رجاحة عقلهم بعبارة ذكرها الفيلسوف العظيم « نيتشة » ـ ولم يكن من أتباع الفوضوية ـ قرر فيها أن الثقافة والدولة خصمان متنافران لا يعيش أحدهما الا على حساب الآخر، ولا يزدهر الا بتداعى خصمه ، وكل ما هو ثقافى يناهض السياسة والساسة يعادون المثقفين •

فحيث يهبط نفوذ السلطة السياسية على طاقات المجتمع الابداعية ـ كما يقول أتباع الفوضوية ـ الى أدنى الحدود ، تزدهر الثقافة وتؤتى خير ثمارها • ويعزى ذلك فى رأيهم الى غرام أصحاب السلطان السياسى بتحقيق التجانس

بين أجزاء المجتمع ، مما يدفعهم الى السعي لاخضاع كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعيه الى قوامتهم • وها هنا يصبح السلطان السياسي - كما يقول باكونين - في وضع ينافض طموح التقدم الثقافي لبلوغ اقصى درجات الخلق والابداع : ويقتضى هذا التقدم كفالة حرية التعبير واتاحه فرصه الظهور لعوامل التغير والانطلاق • ويتطلب هذا بدوره ازالة عوائق التقدم وفي طليعتها الانماط الجامدة واشكال التنظيم البيروقراطي ، ويجافي هذا وجود السلطه السياسية بما تنزع اليه من الحفاظ على القيم القديمة وكبت نزعات الانطلاق نحو كل ما هو جديد وطريف والتزام التقليد والمحاكاة • فالحرية وحدها تلهم الناس ابداع عظائم الابتكارات ، وهي التي تهيء بيئة التحول الاجتماعي •

ويجد الباحث الآراء الفوضوية في جميع فترات التاريخ • فانها تطالعه في كتابات الحكيم الصيني « لاو تزو » [1] كما نعثر عليها في مذهب « الهيدونية » [2] ومذهب الكلبيين Cynics ••• وغير ذلك من المذاهب القائلة بالحق الطبيعي • وتطالعنا هذه الآراء بصفة خاصة في كتابات « زينون Zeno » مؤسس مدرسة الرواقيين ومعارض أفلاطون • وكان للآراء الفوضوية تأثير لا ينكر على طائفة من الشيع المسيحية في القرون الوسطى في فرنسا وألمانيا وايطاليا وهولندا وانجلترا ، فكان أن جابهت أبشع صنوف الاضطهاد •

ويحفل تاريخ المذاهب الأجتماعية والسياسية باسماء نادى أصحابها بالغاء جميع انواع السلطة السياسية والاجتماعيه • فهناك أسماء مثل : بونيه La Boétie وسيلفان Sylvain وبخاصة ديدرو Diderot • وتوج كتاب الفوضوية بظهور وليم جودوين (١٧٥٦ - ١٨٣٦) الذي اعتبر الدوله مصدر الشرور التي يحفل بها العالم وطالب باقتلاع جذورها من الدنيا وجعل الارض ملكا للمجتمع باسره وان تستند الحياة الاقتصادية على التعاونيات الحرة [3] •

وللمفكر الفرنسي «بيير جوزيف برودون» (١٨٠٥ - ١٨٦٥) اثر عظيم في تطوير اراء مدرسة الفوضويين الاجتماعية خاصة ، والفكر الاشتراكي بعامة • فانه - باستثناء العديد من مفكري عصره الاجتماعيين - قد أحس احساسا عميقا بمشكلات عصره الاجتماعية وبالرزايا التي يرسف فيها مجتمعه ، كما امتاز باتساع أفقه الذهني • ولقد عارض في كتاباته ما عده نظما اجتماعية مصطنعة ؛ واعتبر التطور الاجتماعي تطلعا أزليا لأنماط جديدة من الحياة الثقافية والاجتماعية • بيد أنه قد آمن بأن هذا التطور لا يتقيد بحال من الأحوال بصيغ تجريدية محددة • وناهض برودون فكرة تدخل مركزية في تقدم المجتمع الطبيعي وارتقائه الاجتماعي • ولم يكن برودون شيوعيا وان شجب الملكية باعتبارها مظهر الاستغلال ، فلقد اعترف بملكية أدوات العمل للجميع على أن ينتظم العاملون في جماعات صناعية يترابط أفرادها بموجب عقد حر ينتفي منه استغلال جهد أفراد لأفراد آخرين ويضمن بموجبه حصول كل عامل على نصيبه

(١) أنظر صفحات ٢١١ - ٢٧٢ من الفصل الثاني عشر الوارد بالجزء الأول من مؤلفنا « حكمة الصين » (دار المعارف) .

(٢) الهيدونية : مذهب مفاده أن اللذة غاية الحياة

(٣) أنظر مؤلفنا « المدينة الفاضلة »

العادل من ناتج الجماعة ؛ وأساس هذه المشاركة تبادل المنافع والاستمتاع بالسلع والخدمات الاجتماعية وتقاس فيها قيمة أية سلعة أو خدمة بمتوسط زمن العمل المطلوب لانجازه • وهكذا يجرد رأس المال من سلطانه الربوى ويرتبط تماما بالعمل المنجز • واذ يتاح رأس المال لجميع المنتجين،تبطل وظيفته كأداة للاستغلال • وبفضل اتخاذ الاقتصاد القومي هذا الشكل ـ كما يدعي برودون ـ يتأتى تجريد الجهاز السياسي من طابعه الالزامي ، ويغدو المجتمع عصبة من الجماعات الحرة تتولى تنظيم شئونها ، وتصبح حرية الفرد مساوية لحرية الآخرين ، وفي هذا يقول « كلما توافر للفرد قدر أعظم من الحرية، عظم نفعه للمجتمع » •

واعتنق آراء برودون كثير من مفكرى القرن التاسع عشر ، وتولى بعضهم تفسيرها والتعليق عليها والاضافة اليها ، وظلت جماع مذهب الفوضوية حتى ظهر باكونين الذى أضفى عليه قوة دافقة • فلقد نادى بملكية الأرض الجماعية وجميع وسائط الانتاج ، وتبلورت آماله في تقييد حق الملكية الخاصة وحصره في انتاج الفرد الخاص •

وكان باكونين خصما للشيوعية لما تضمه بين طياتها من صفات السيطرة والقهر ، وفي هذا يقول « لست شيوعيا لأن الشيوعية توحد جميع قوى المجتمع في الدولة ، وتمتص الدولة هذه القوى وينتهي الأمر الى تركيز الملكية بأسرها في أيدى الدولة ، في حين أنني أنشد التخلص تماما من مبادىء السلطة والقوامة الحكومية ، وفي ظل ادعاء الحكومة بتوليها تموين المواطنين، تستعبدهم وتستلغهم وتدمرهم » •

وسنفصل ما أجملناه هنا في الفصل التالي:

٢ ـ منحى باكونين التفكيرى

١ ـ المؤثرات الفكرية :

قد باكونين غرامه بالفلسفة للانضمام ـ في بداية الأمر ـ الى حركة دراسية بدأت بدراسة آراء « كانط Kant » و « شيلنج Schelling » • ثم كون بمدينة « تفير Tver » في نهاية عام ١٨٣٥ أولى جمعياته السرية وضمت أخوته وأخواته وبعض أصدقائه الحميمين • لكن أسفرت التجربة عن مأساة ، اذ طارح أصدقاؤه شقيقاته الحب • فكان أن دب الشقاق بين أعضاء الجمعية • وغادر باكونين عائلته في بداية عام ١٨٣٦ الى موسكو ليعيش فيها وحيدا وليدرس الفلسفة بجامعتها ، على أن يتكسب رزقه بتدريس الرياضيات • وكرس نفسه هناك لدراسة الفيلسوف « فيخته Fichte » وترجم محاضراته عن « مصير أستاذ » لمجلة التلسكوب• وأصبح كتاب فيخته « سبيل الحياة الموفقه » أثيرا الى فكره • ثم انتقل لمطالعة مؤلفات « جوته Goethe » و « شيلر Schiller » و « جان بول Jean Paul » و« هوفمان E.T.A. Hoffmann » ••• وغيرهم •

وظل باكونين على ولائه الفكرى للفيلسوف « فيخته » حتى صيف عام ١٨٤٠ حين انتقل الى هيجل وأصبح من المتعصبين لآرائه • واتسمت هذه الفترة بمشاداته في حلقات البحث الاشتراكية والراديكالية التي تركزت حول « هيرزين Herzen » و « أوجاديف Ogadev » • كما اتصل بأصحاب مبدأ الجامعة السلافية • وفي ٢٩

من يونيه سنة ١٨٤٠ غادر موسكو الى برلين حيث أمضى ثلاث سنوات دراسية انتقل بعدها فى ربيع ١٨٤٢ الى درسدن فاتصل بـ « آرنولد روجه Arnold Ruge » وكان أعظم حجة فى فلسفة هيجل • ثم انكب على مطالعة مؤلفات الشيوعيين ، لكنها لم تسيطر على ذهنه وان اعتبر الأيديولوجية الشيوعية عاملا ثوريا عاما •

وأمضى باكونين عاما ونصف عام فى دراسة مقولات هيجل ، وأثرت فى ذهنه تأثيرا عارما • ولقد أبرأته أخيرا مما أطلق هو عليه « مرض الفلسفة المسيطر » • لكن استغراقه فى دراسة آراء هيجل قد أورثه طباعا هيجلية عضالية، وهذا ما سلم به فى احدى العبارات الصادقة التى وردت فى اعترافاته « أصبحت بسبب احاطتى بالمؤلفات الميتافيزيقية مقتنعا بتفاهة الموضوعات الميتافيزيقية بأسرها • لقد نشدت فيها الحياة فلم أجد سوى الموت ، سعيت وراء الأفعال فلم أعثر الا على التبطل المطلق » •

وهكذا ؛ عجز باكونين عن أن يطالع كتابا فلسفيا واحدا من غير أن يصيبه — على حد قوله — نوع من الغثيان الفكرى • ومع ذلك ؛ ظل بمعزل عن المشكلات السياسية والاجتماعية محتقرا لها • وقادته حالته الذهنية القلقة لمجابهة فراغ عقلى رهيب • وفى سنة ١٨٤١ قابل آرنولد روجه رئيس تحرير الكتاب السنوى الألمانى وباعث الحياة فى الجناح اليسارى من الحركة الهيجلية • وما لبث باكونين أن اقتنص طائفة من آراء هذا الفيلسوف المتطرفة القائمة على المنطق الجدلى : من ذلك ايمانه بأن الأفعال الدافعة الضخمة هى الأسس وليست النظريات الجوفاء والآراء الطنانة • وقادته فكرته للقول بأن العقيدة الدينية الحقيقية تكمن فى الفعل السياسى وفى الصراع الاجتماعى •

أخلص مما تقدم الى تقرير أن النزعة التدميرية الكامنة فى عقل باكونين الباطن قد وجدت فى طائفة من نظريات هيجل مسوغا فلسفيا • وهذا ما يطالعنا — بالذات — فى فكرته عن الحرية •

٢ — فكرة باكونين عن الحرية :

دأب باكونين منذ عام ١٨٦٠ الى قبيل وفاته عام ١٨٧٦ على شرح فكرة الحرية فى عدة مقالات ورسائل وخطابات نخص بالذكر منها رسالتين :

الأولى — الاله والدولة •

الثانية — نظم الدولة والفوضوية •

ويتجه حوار باكونين ويوجه جداله صوب تحطيم نظرية العقد الاجتماعى فى نشوء الدولة: سواء أكانت فى ثوبها الليبرالى أم وفقا لتفسير اليعقوبيين الفرنسيين له • فمن رأيه أن هذه النظرية تتجاهل المجتمع وتسقطه من حسابها • ذلك لأن الليبراليين واليعقوبيين كليهما — قد نظروا الى الفرد نظرة تنفصل عن نظرتهم الى المجتمع منتظما فى دولة • فلقد أدرك الليبراليون ادراكا لا يرقى اليه الشك أن الدول القائمة فى كل مكان قد تكونت بطريق الغلبة والنهر ، لكنهم لم تجد مفرا — كما يقول باكونين — من أن تصطنع فى ظل عقد مطلق الارادة تبريرا لوجود الدولة وتسويغا لبقائها •

ويرمى باكونين وجهة النظر الليبرالية — المتصلة بالأفراد الذين يكونون الدولة — بمناقضتها ذاتها • ذلك لأنها تعتبر الأفراد كائنات لكل منها

ذاتيته الخاصه ونزعته الأستقلالية ، الأمر الذى تنتفى منه حاجة الافراد للمجتمع ، بل يمثل المجتمع عقبة كئوداً فى طريق استمتاعها بالحرية الكاملة • ومن الناحية الاخرى : تظهر وجهة النظر الميبرالية نفس الناس ضعاف ناقصين يعتمدون على قوى الطبيعة اعتمادا مطلقا ويفتقرون للحماية ، ولكفالة هذه الحماية ينبذون حريتهم•

ولا يرضى باكونين عن القول بأن الحريه الشخصية تتحدد بحرية الأخرين • اد يرى فى هذا التعريف الليبرالى لحدود الحرية شعارا كاذبا يضم بين طياته كافة نظريات الطغيان، وذلك طالما أن جوهر الدولة ــ وفق هذه الصيغة ــ هو صورة سلبية للحرية •

أما صيغة باكونين عن الحرية فأساسها : المادية ، والواقعية ، والجماعية • ومصداقا لرأيه هذا ، لن يغدو الانسان بصيرا بانسانيته مدرك لرسالته الا فى ظل مجتمع ، وعن طريق فعل جماعى يقوم به المجتمع باسره • فلن يستطيع الانسان تحرير نفسه من ربقة الطبيعة الخارجية الا بفضل فعل جماعى • وبالتالى ؛ فان فى وسع المجتمع وحده تحويل الكرة الارضية الى مكان صالح لوجود الانسان • فان لم يتمكن الانسان من تحرير نفسه ماديا ، فلن يقيض له تحرير نفسه ثقافيا ومعنويا • ولن يستطيع الانسان ــ وفق رأى باكونين ــ أن يحرر نفسه من طغيان طبيعته الذاتية وأن يتحلل من اسار غرائزه الا بوساطة التعليم ، والتعليم ــ بالضرورة ــ عملية اجتماعية •

وأخيرا ــ كما يقول باكونين ــ يعجز الانسان المنعزل أن يحس بحريته • ذلك لأن الحرية ثمرة التفاعل • وتفسير ذلك أن حرية كل فرد انعكاس انسانيته فى وعى اخوانه الأفراد جميعا • وبعبارة اخرى ، فان حريه الاخرين لاتعتبر تقييدا لحريتى او نكرانا لها ، بل انها ــ على العكس ــ شرط لازم لحريتى ، فكلما تعاظمت حريات الأخرين تعاظمت حريتى • ونقيض ذلك ان استرقاق الاخرين يحد من حريتى •

وصفوة القول : لفكرة باكونين عن الحرية جانبان :

جانب ايجابى •

جانب سلبى

والتمرد مناط فكرة باكونين عن الحرية • ويعنى بالتمرد ، تمرد الشخصية البشرية على كافة ضروب السلطة سواء أكانت الهية او بشرية جماعية أو فردية • لأن من رأيه أن التبشير باله تقديس للعبودية الثقافية والتخلفيه على الارض ، ولن يتاتى فى رأيه استكمال عناصر الحريه البشرية الا بتدمير أسطورة السيد السماوى •

ويحتم باكونين كذلك التمرد على الدولة • اذ يعتبرها مجرد شكل تاريخى خاص لوجود المجتمع • واذا كانت الدولة ــ فى رأيه ــ صورة سلبية للحرية ــ فتجب محاربتها لكفالة الحرية الكاملة •

وعلى حين أن باكونين يعتبر الدولة آفة وائما ، فانه لا يعد المجتمع شرا أو خيرا ، لأنه ضرورة لا محيص عنها • ذلك لأن ثمة قوى معينة لها فاعليتها فى المجتمع ــ مثل العادات والطباع ــ لا يمكن أن تكون خيرا أو شرا • ومصداقا لهذا الرأى ، يصبح ضغط المجتمع على الفرد خيرا ان وجّه ــ أى ضغط المجتمع ــ صوب تقدم العلم وارتقاء الهناءة المادية وتوفير

الحرية والمساواة والتضامن الأخوى بين الناس • ويغدو ضغط المجتمع على الفرد شرا تستلزم معارضته أن اتجه اتجاهات تعادى هناءة الناس ماديا ومعنويا •

لكن يقرر باكونين أن التمرد ضد المجتمع أعظم صعوبة وأشق كثيرا من اعلان راية العصيان ضد الكنيسة والدولة • فالمجتمع ليس شيئا خارجيا • انه قائم بين تضاعيف الفرد وداخل ذاته ، والفرد محكوم بعملية متصلة من التكيف • ومع ذلك ، ثمة فى كل قطاع للمجتمع أناس يعملون على الخلاص من اسار عملية التكيف ، بما يعنى ذلك من التمرد ضد الأوجه المؤذية للوجود الاجتماعى • فلما أن ولى باكونين وجهه شطر مجتمع عصره ، ألفى نفسه في مجتمع كل فرد فيه هو بالضرورة مستغل احتمالى للآخرين • ولكن بينما يحتاج كل فرد الى جهود الآخرين المادية ليستمتع استمتاعا ماديا ، لا يحتاج الى جهود غيره المعنوية • ويصدف كل فرد ـ كما يقول ـ عن التضامن لاعتباره اياه عقبة أمام حريته الروحية ، لكن يلتمسه لحاجته اليه لكفاية احتياجات جسمه • بيد أنه بالرغم من اعتباره كل فرد مستغلا من ناحية المبدأ تثبت وقائع الحياة ان البعض مستغل والبعض الآخر مستغل ، وما وظيفة الحكومة الا استدامة هذه الحال • وفي رأى باكونين أن الاستغلال قوام النظام البورجوازى ومادته ، بينما أن الحكومة روحه ونفسه : وكلاهما نتيجتان واجبتا الوجود للمذهب البورجوازى الذى ينشد حرية الأفراد خارج نطاق التضامن الاجتماعى • هاهنا يقع على كاهل الثورة تدمير أشكال الجور الثلاثة : الديني ، والحكومي ، والاجتماعى •

ولكن ، ماذا بعد الثورة ؟

استخلص باكونين من أحوال روسيا عام ١٨٦٨ برنامجا آمن بايجابيته ويهدف لتحرير الشعب ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا تحريرا تاما • وتقتضى كفالة الحرية الثقافية اشاعة الالحاد والنزعة المادية بين الناس ، وتتطلب الحرية الاجتماعية تحقق خمسة اشتراطات :

الأول ـ ابطال حق الميراث •

الثانى ـ منح المرأة المساواة الكاملة بالرجل ، بمعنى نسخ تشريع العائلة ونظام الزواج •

الثالث ـ نقل مسئولية اعالة الأطفال وتثقيفهم الى المجتمع •

الرابع ـ كفالة العدالة الاقتصادية • ويتيسر ذلك بنقل ملكية الارض الى من يفلحونها ، أى الى الكوميونات ، ونقل حيازة أدوات الانتاج الصناعى الى العمال أى الى اتحادات العمال •

الخامس ـ قيام التنظيم السياسى للمجتمع على اتحاد حر بين الاتحادات الزراعية أو الصناعية • وتنفيذا لهذا الرأى ، يجب اقتلاع تنظيمات الدولة الدينية والاقتصادية والقضائية والتعليمية والعسكرية والمالية من أساسها • ويجب أن تهيأ الحرية الكاملة للشعوب التى تستعبدها القيصرية الروسية • فان تحققت هذه الغاية ، يصبح فى وسعها أن تنخرط في اتحادات حرة مع جميع المجتمعات الأوربية وغيرها فى جميع أنحاء العالم •

٣ ـ دور باكونين فى المؤامرات :

يعتبر رحيل باكونين عن برلين نقطة انطلاقه للتبشير بالعنف واحتراف التآمر والعمل

الدائب لتكوين جيش يضم المتمردين على النظم من جميع أنحاء العالم • واستقر به المطاف بباريس حيث قابل كارل ماركس فأعرض عنه منذ أول نظرة وان أعجب بسعة معارفه • وانتقل عام ١٨٤٧ الى بروكسل حيث أخذ يتهم مركس بتضليل عقول العاملين الشرفاء ويصفه بالغرور والجبن وبالسذاجة واستغلال مصطلح البورجوازية أسوأ استغلال •

واستطاع باكونين أن يحظى بعطف صغار العمال والصناع وبسطائهم من مختلف الجنسيات وأن يكتسب وفاءهم ، لكن سحر بلاغته وطلاوة حديثه قد عجزا عن استمالة المثقفين واغرائهم بالاخلاص لقضيته على طول المدى • وعبر أحد كبار مثقفي عصره (المؤرخ جرانوفسكي) عن شعور المثقفين تجاهه بقوله « ان ذهن باكونين يفتنني كثيرا حتى أصبحت عبدا لآرائه ، لكنها تفزعني كلما اشتدت معرفتي بها وتروعني ان زدت اقترابا منها » • وقال عنه بيلنسكي أحد كبار مفكري عصره : « باكونين انسان عجيب ، انه أب روحي وراع فكري عظيم، لكن لاتستقيم الصداقة الحقة مع ادعاءاته ، فانه يتعشق الآراء ولا يحفل بصحبة الناس » •

وفي باريس قابل المفكر الفوضوي الفرنسي « برودون » عدو كارل ماركس اللدود • وأثرت فيه فكرة برودون عن الجمهوريات الاتحادية تنبثق من أدنى المجتمع الى أعلاه فتضع حداً للحروب بين الدول الاقليمية ، فأوحت الى باكونين بفكرة انشاء اتحاد ثلاثي يحل محل الامبراطوريتين النمسوية والروسية • وعمل على اخراج فكرته الى حيز التنفيذ العملي •

فاتصل خلال اقامته بباريس بعدد من المهاجرين البولنديين والتشيك ونشر بينهم فكرة الجامعة السلافية • وكانت ثورة باريس عام١٨٤٨ فرصة أتاحها له القدر لينفس في أحداثها عن حقده على المجتمع وليختبر آراءه عمليا • فكان ينطلق منذ الصباح الباكر الى المتاريس التي احتمى فيها الثوار ضد القوات النظامية ، وكان يحرضهم ويرسم الخطط مستغلا معارفه العسكرية• وكان يؤم اجتماعات العمال • ولم يغمض له جفن ـ الا لماما ـ طوال شهر أسكرته أحداثه روحانيا ـ على حد قوله في رسالة بعث بها لأحد أصدقائه • ولقد أوحت اليه أحداث ثورة باريس بوصف ظاهرة الثورة ـ أية ثورة ـ بأنها سليقة وفطرة أعظم من أن تكون فكرة ، ثم سخر من مناهضيه ووصفهم بأنهم فلاسفة وساسة تصطنع أذهانهم نظما لا صلة لها بالواقع ، وذلك لافتقارهم الى السليقة الثورية •

بيد أن القائمين على ثورة باريس وجدوا في نزعة باكونين الديناميكية عبئا جسيما لا بد وأن يدفع بالثورة الى التهلكة • وهذا ما دعاهم للتخلص منه في أدب جم ، فزودوه بقدر كاف من المال يتيح له مغادرة فرنسا • فارتحل الى براج ليحضر المؤتمر السلافي الذي عقد في يونيه ١٨٤٨ ، وانفض فيغمار اضطرابات الطلبة والعمال بفضل تحريض باكونين •

وقام باكونين بدور فعال في الاضطرابات التي حدثت عام ١٨٤٨ بمدينة درسدن ، لكن أمكن البوليس قمعها وقبض عليه وصدر عليه حكم الاعدام في يناير سنة ١٨٥٠ ، لكن عدل الحكم في يونيه الى السجن المؤبد وأرسل الى قلعة « أولموتز » حيث قيد بالأغلال الثقال •

٤ ـ اعترافات باكونين

انتهى الحال بباكونين أن سلمته السلطات النمسوية للحكومة الروسية • وبالرغم من نزعته الفوضوية التى تنكر الواقع القومى ، فانه علق على تغيير قيوده النمسوية بقيود روسية بقوله «ان سلاسلى الوطنية تبدو أخف وأنها لتسعدنى• وحسبى أننى سأدفن تحت ثرى روسيا » • وظل فترة شهرين حبيس قلعة بطرس وبولص تلقى بعدهم رسالة من القيصر نيقولا الأول يطالبه بكتابة اعتراف شامل لخطاياه موحيا اليه بأنه والد روحى يخاطب ابنا عاقا لا مجرما سياسيا عاتيا •

وأثرت شهامة القيصر فى نفسية باكونين وانتشى من انتباهه له وأطاع أمره وانكب على كتابة اعترافاته التى لم تنشر الا عام ١٩٢١ أى بعد سبعين سنة من كتابتها• وتعتبر سجلا مذهلا يدل على تيه ذهنه وشرود عقله • وان تملقه المقوت للقيصر وتوبته الخسيسة عن أفعاله وأخطائه ، ليلقى طوفانا من الصور على شخصيته المتأرجحة • لذلك فان سرده التفصيلى لمغامراته الأوربية وتأثيرها على الأحداث الأوربية ، كفيل بأن يعرف الباحث حقيقة مشاعره •

ولا يمكن تعليل اعترافات باكونين للقيصر نيقولا الأول بأنها نسيج من الأكاذيب صاغ هو خطوطها لتهدئة القيصر ليخفف وقع عقابه له • فلا تحتوى الاعترافات الا عبارات قليلة تمجد العنصر السلافى وتطعن الألمان • بينما توجد عبارات أخرى كان لابد وأن تثير ثائرة القيصر ، لا سيما ما يتعلق منها بنقد سياسته الداخلية والخارجية نقدا لاذعا •

ولقد وصف باكونين اعترافاته للقيصر بأنها مزيج من الحقيقة والخيال • ولم يذكر لأصدقائه أنه جثا أمام قدمى القيصر يطلب الغفران معلنا التوبة • ويحطم هذا ، الأسطورة التى يتناقلها أتباع مذهبه عن كونه ثائرا جسورا• ولقد أكد فى اعترافاته أنه لم يلتحق قط بمنظمة اشتراكية أو شيوعية ، فقال فى هذا الشأن « سلكت سبيل الحركة الاشتراكية وبخاصة الشيوعية لأننى اعتبرتها نتيجة حتمية للتطور الاقتصادى والسياسى فى أوروبا الغربية • وأقول أوروبا الغربية فقط ، اذ ليس للشيوعية مكان على أرض سلافية : ذلك لأنه فى جميع أنحاء أوروبا الغربية يشاهد المرء الانحلال والعجز والزندقة والرذيلة التى تنبثق عن الكفر• فابتداء من أعلى السلم الاجتماعى ، لا تؤمن أية طبقة ايمانا أصيلا برسالتها ولا بحقوقها • ان أفراد طبقات المجتمع الغربى مجرد مشعوذين تربط بعضهم ببعض الأنانية والضراوة ويتماسكون أمام العاصفة المرتقبة • وتنتشر الشيوعية فى أعلى المجتمع وفى أدناه • فهى تعيش بين ظهرانى الجماهير كرغبة مبهمة ، وتحيا بين الطبقات العليا بمثابة فزع بائس هو عقبى ضمير ضعيف ملوث• وهذا الفزع والصيحة القائمة ضد الشيوعية ، يعاونان على اذاعة الشيوعية أكثر مما تفعله الدعاية الشيوعية ذاتها • ويبدولى أن الشيوعية الغامضة المتوارية نصف الواعية ـ والموجودة فى كل مكان لهى أخطر خطرا غير محدود على النظم القائمة من المذهب الذى تبشر به بضعة من الجمعيات •

وأشر القيصر على هامش هذه العبارات بكلمة « مضبوط » •

وينتقل باكونين فى اعترافاته الى اظهار

أحاسيسه المناهضة للألمان وبيان صدق حبه للعنصر السلافي • ومما قاله « كراهية الألمان هي الأساس الأول لوحدة السلاف • ولقد أقنعتني اقامتي الطويلة في أوساطهم بأن القدر لن يتيح لهم وجودا سياسيا • ويتبدى للبحث من خلال دراسة تاريخ ألمانيا السياسي أن اعتناق البروتستانتية قد أسفر عن فوضى شاملة بين الأقاليم والمدن والقرى بالاضافة الى وجود تمرد داخل كل ألماني مداره صراع بين آرائه وشعوره وارادته » •

وغريب أن يلعن باكونين ما أسماه « نزعة الشعب الألماني الفوضوية» • لكن هذه الملاحظات التي ينتقص فيها من الشعب الألماني توضح مضمون اصطلاح الفوضوية عند باكونين • فهي ليست تثقيفا مثاليا ، لكنها لديه مجرد وسيلة أولية لصياغة نظام استبدادي جديد يرسم هو خطوطه الأساسية ويذود عنه في اعترافاته :

« لقد تمنيت النظام الجمهوري . لكنني لم أرغب تلك الجمهورية البرلمانية بحكومتها النيابية وأشكالها الدستورية وما تزعمه عن الفصل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية • انني أومن ايمانا قاطعا بأن السلطة الديكتاتورية ضرورية لحكم روسيا أكثر من ضرورتها لحكم أي بلد آخر ، وذلك ليتسنى رفع مستوى الجماهير وتثقيفها • وقوام الديكتاتورية سلطة تملك حرية الاختيار وتتجه الوجهة التي تعينها ، ولا يحد من سلطانها قيد برلماني ، ويسندها أناس يؤمنون بها » •

ولا يمكن اتهام باكونين باستعارة آرائه عن الديكتاتورية من كارل ماركس وقد نشرها قبل عام ١٨٧٥ • ذلك لأن عبادته للحرية الطليقة من كل قيد – كما وصفها في اعترافاته – دفعته الى رسم خطة استبدادية المنحى لتنظيم ثورة دولية • وبمقتضاها تتألف ثلاث جمعيات منفصلة تستقل احداها عن الأخرى ويحمل كل منها اسما مختلفا وتجهل احداها الأخرى : تختص واحدة بشئون طبقة المهنيين ، وتعالج الثانية موضوعات الطلبة ، وتتعامل الثالثة مع القرى • وتتجه كل جماعة بالطاعة الغير مشروطة للأرفع منزلة في سلم التنظيم • وتنحصر العضوية في عدد صغير من الرجال المجربين ذوي الهمة : يلتزمون التزاما تاما بالأوامر الصادرة اليهم من أعلى ، ويبثون الدعوة في أوساط الجماهير •

ويجب أن تسرى الدعوة بين الناس في يسر وسهولة وفي نشاط غير ملحوظ • ويعهد الى لجنة مركزية بسلطات مطلقة لتنسيق العمل بين الجمعيات الثلاث •

وينتقل باكونين من اعترافه المثير بآثامه في تخطيط عديد من المؤامرات الدولية المدمرة ، الى ابداء الرأى عن نقائصه ، فيقول « انني لا أحرز تلك الصفات الألمعية ، ولا تلك الرذائل التي تكون الساسة والمجرمين الاراديين• انه ليسعدني أن تسيرني ارادة شخص آخر ، لأنني أعشق دائما النظام وأحترمه ان أقيم على الاقتناع والايمان » •

لكن مزاج باكونين العاتي قد دأب على تدمير كل نظام رغب في فرضه على نفسه • وهذا ما عبر عنه بشكواه – في اعترافاته – من أنه يكربه حب المغامرات التصورية الشاذة التي لم يسمع بها قط ، واقراره بأن استقرار السلام يلقى به الى اليأس ، وأنه كان أجدر به أن يولد

فى فيافى الأجمات الأمريكية لا فى مجتمع متحضر ، أو ينشأ فى أوساط المستعمرين الغربيين حيث الحياة صراع سرمدى ضد الهمج وضد الطبيعة الوحشية • ولو كان القدر قد جعل منه بحارا لتطور ـ كما يقول ـ الى رجل يبجله الجميع ، لا يلقى للسياسة بالا ولا ينشد المغامرات ، ولنأى عن أعاصير الحياة •

وبيّن باكونين فى اعترافاته أنه استمد منحاه فى الاشتراكية من مشاعره الخلقية وحدها، ويقول فى هذا الشأن « أفعم قلبى شعور بالعطف على العامة لم أحس به تجاه طبقة النبلاء الروسية الفاجرة المجردة من الأخلاق الكريمة • ان على هؤلاء العامة تنعقد آمالنا فى بعث روسيا ••• فلقد تبينت فيهم القوة وسماحة النفس وصفاء الذهن، ولمست الحيوية الروسية الدافقة ••• وطفقت أعمل الفكر فيما تئول اليه أمور ذلك الشعب لو أتيحت له الحرية ومنح حق الملكية ، ولو أمكنه القراءة والكتابة • أجابنى ذهنى عن تساؤلى بأن الحكومة لن تعمد أبدا لتحرير الشعب الروسى ، لأنها رغما عن سلطانها الغير المحدود تغل يديها اعتبارات كثيرة تتصل بادارتها البيروقراطية وبمصالح القائمين عليها • ويأتى فوق كل شيء آخر ، عزوف الحكومة ذاتها عن تحرير الشعب وتثقيفه ورفع مستواه •

ذلك لأن الحكومة الروسية ترى فى الشعب أداة لا روح فيها تستخدمها لفتح أوروبا • وانى لأتساءل عما تجنيه روسيا من فتوحاتها ، فهل تصبح أسعد حالا وأعظم حرية وأشد هناءة لو قُيِّض لها غزو نصف العالم ، بل هل تصبح أقوى مما هى عليه ؟ أفلا تتهاوى دعائم الامبراطورية الروسية أن وسعت حدودها أبعد مما هى عليه ، اذ سيقع على كاهل روسيا عبء ادارة مساحات شاسعة ادارة مركزيه ، ستقود بلا شك لكراهية العنصر السلافى لها ، وهى بالفعل مكروهة من البولونيين • وسينتهى الحال بها الى كراهية الروس أنفسهم ، اذ لن يجنو من وراء فتوحاتهم سوى الأذى والعبودية •• »

وينتهى باكونين من اعترافاته للقول بأنه قد ذكر ما فيه الكفاية وأنه يقف أمام القيصر كما يقف الولد العاق التائب أمام والده الغاضب • وناشده ألا يدينه بالسجن طوال حياته ، وأبدى استعداده ليعمل أشد الأعمال عنفا وأقساها لكنه لا يحتمل السجن الانفرادى • ووقع على اعترافه باسمه تحت كلمتى « المذنب التائب » •

ولقد رأى القيصر نيقولا الأول فى هذه الاعترافات وثيقة ذات أهمية قصوى فدفع بها الى ولده وولى عهده الكسندر • وأذن لباكونين برؤية أفراد عائلته بحضور مراقبين من السجن • الا أنه أصر على بقائه يرسف فى الأغلال ، الأمر الذى أنهك بدنه فاعتلت صحته وتساقطت أسنانه • ولما تولى الكسندر الثانى العرش ، كتب يلتمس تخفيف عقوبة السجن الانفرادى وفكر فى الانتحار لو رفض طلبه • وأثمر رجاء والدته للقيصر ونفوذ ابن عمه الجنرال مورافيوف آمورسكى ، فاستبدل الحبس الانفرادى بالنفى الى سيبريا •

وبفضل نفوذ ابن عمه حصل على تصريح بالسفر الى نهر آمور ، واكتفى منه الحاكم العام بأن يقسم بالعودة الى ايركوتسك (حيث اقامته بمنفاه فى سيبريا) عقب انتهائه من دراسة المنطقة • لكن ما ان بلغ مصب النهر حتى تسلل

الى سفينة روسية أبحرت به الى ميناء على المحيط الهادى حيث وجد سفينة أمريكية أبحرت به الى اليابان ثم الى الولايات المتحدة ، وبلغ لندن بعد رحلة شاقة استمرت خمسة شهور فيمم وجهه شطر منزل صديقه « هيرزين » •

٥ - صراع باكونين وماركس

أخذ الصراع يشتد بين باكونين وماركس منذ عام ١٨٦٨ على الفوز بزعامة «العمالية الدولية » • وكان باكونين قد أمَّ عام ١٨٦٧ مؤتمر السلام والحرية الذى عقدته فى جنيف الأحزاب الديموقراطية للأمم الأوربيه الكبرى احتجاجا على الحرب • وحضر جلسات المؤتمر فيكتور هيجو من فرنسا وجون ستيوارت ميل من انجلترا وجاريبالدى من ايطاليا؛ فأضفى حضورهم أهمية خاصة على المؤتمر • واجتذبت الخطب الرفيعة أنظار الصحافة • لكن استقال باكونين عقب اجتماع العصبة الثانى بمدينة برن محتجا بعدم جدواها وأن اجتماعاتها قد أصبحت منبرا للأحاديث الجوفاء ، واجتمع حوله أمثاله من الساخطين فألف منهم ما أطلق عليه « الحلف الديمقراطى الدولى » •

وسعى باكونين لدى ماركس ليقبل هذا الحلف كوحدة فى نطاق « الدولية العمالية » ، متظاهرا برغبته فى توفير الأكفاء لادارة شئون الحلف واستثار هذا الطلب شكوك ماركس القديمة عن أغراض باكونين فكتب عام ١٨٦٩ رسالة الى زميله « انجلز » أنبأه فيها بأن باكونين يتكرم على الحركة العمالية الدولية باقتراح وضعها تحت الرعاية الروسية • فلما رفض ماركس الطلب وافق باكونين على حل الحلف ان قبلت الدولية العمالية فروعه المحلية فى عضويتها •

وأنبأ باكونين ماركس أن أربعين ألف طالب روسى يتوقون لتكريس جهودهم للقضية الثوريه • وعلق انجلز على هذه الفكرة بقوله « ان استيراد أربعين ألف من هؤلاء الروس الطموحين الجياع أتباع مذهب العدمية بمثابة تعيين ضباط ناشئين لجيش ستكون البروليتاريا الغربية جنده ، وسيدلل على صدق النظرية التى يروج لها الكتاب الروس بأن البروليتاريا الغربية يجب أن يقودها الروس • فتحت ستار مبدأ الدولية ، يندس أشياع باكونين بين صفوف العمال فى كل مكان ويزحفون الى المراكز الرئيسية حاملين معهم جميع تلك المؤامرات والجلبة والصياح وغيرها من الصفات التى يشتهر بها الروس فى كل آن وأوان » [١] •

ولقد اتهم ماركس باكونين بالسعى لتدمير « الدولية العمالية » تحت ستار العمل على تطويرها وتوسعة نطاق نشاطها ، بينما آمن باكونين بأن منظمة ماركس تحوى بين طياتها جهازا سريا يقف ماركس على قمته •

وكان الرجلان متباينين فى أخلاقهما :

١ - كان ماركس يحس احساسا طاغيا بسموه الفكرى • ونادرا ما كان يجهد نفسه باخفاء ازدرائه للجهلة • ولقد عمل منذ تكوين « الدولية العمالية » على ابعاد جميع من يعجز هو عن فرض ارادته عليه •

٢ - تطلع باكونين لأن يعدو ديكتاتورا

---

(١) وارد بصفحة ٢٣٧ E.H. Carr : Karl Marx.

مقنعا • ولقد أحال وسائل الارهاب السوداء السرية الروسية الى أسلوب أوربى ظاهر أطلق عليه « صراع طبقى » •

٣ ــ ناهض ماركس فكرة باكونين القائلة بالموافقة على انشاء وحدات قومية داخل نطاق الدولية العمالية • وحدا به هذا الى رفض طلب الأعضاء الانجليز لانشاء مجلس اقليمى لانجلترا داخل الدولية •

ولم يتورع ماركس فى صراعه ضد باكونين عن الاستعانة بكل سلاح يحقق غرضه فى تدمير خصمه اللدود • ففى خلال انعقاد مؤتمر السلام بمدينة لوزان هاجم ما أطلق عليه « المقترحات المنافية للعقل » ومن بينها مماثلة الطبقات ، ومحو حق الميراث كخطوة أولى فى الثورة الاجتماعية• وصب جام ازدرائه على أساليب باكونين الارهابية وعلى ضراوته اذ يسب البورجوازية الغربية ، ايجد فى ذلك السب متنفسا للحقد الروسى – كما يقول – على الحضارة الغربية ولاخفاء همجيته (يقصد باكونين) • وأعادت صحيفة فولكستات (لسان حال الحزب الألمانى الديمقراطى) الاتهام الذى كان البعض قد ألصقه عام ١٨٤٨ بباكونين وهيرزين من أنهما جاسوسان للحكومة القيصرية الروسية •

وفى غمار انعقاد مؤتمر الدولية العمالية عام ١٨٤٨ طالب باكونين فى تاثر بالغ اصدار قرار يدحض هذا القذف • فتكونت لجنة تحقيق انتهت الى اتهام محرر صحيفة فولكستات بالطيش الاجرامى لترويجه شائعة أن باكونين عميل قيصرى • وكتب المحرر اعتذارا حرقه باكونين أمام أعضاء المؤتمر واستخدمه فى اشعال سيجارته

وأشار الى امه فى احتقار بالغ • وهكذا ؛ أمكن باكونين الحفاظ على كرامته واكتساب الاحترام رغم أنف أعدائه المتربصين به • واذ عاين ماركس نفوذ عدوه اللدود يتزايد يوما بعد آخر ، لم يجد بديلا من سحقه قبلما تستفحل قوته ، فرسم خطة طرده من « الدولية العمالية » وواتته الفرصة ابان انعقاد مؤتمر لاهاى عام ١٨٧٢ •

تبلور اتهام ماركس لباكونين فى اخلاله بواجباته كعضو فى « الدولية » لتأسيسه جمعية سرية أسماها « التحالف » ذات نظم تعادى أهداف الدولية العمالية • لكن تعذر اثبات وجود هذه الجمعية السرية • ومع ذلك فماركس لم يعدم وسيلة للتشهير بباكونين أمام ذلك المؤتمر • وتمثلت الوسيلة فى اتهام باكونين بأنه تقاضى من ناشر روسى أتعاب ترجمة مؤلف ماركس «رأس المال» من الألمانية الى الروسية ، ولم يستكمل باكونين الترجمة على الرغم من تقاضيه أجره كاملا ومقدما • وأفلح ماركس فى طرد باكونين من « الدولية العمالية » لاستخدامه الغش والخديعة فى معاملاته مع الناس •

وخشى ماركس استيلاء أتباع باكونين على « الدولية العمالية » فسعى الى نقل مقر ادارتها من لندن الى نيويورك• ولم تكن البيئة الأمريكية مناسبة قط لمنظمة ترعى مشكلات وظلامات أوربية الطابع • ولا شك أن الباحث فى الآراء السياسية والاجتماعية تنتابه الحيرة من موقف كارل ماركس الذى نصب نفسه لمحاربة جرائم البورجوازية ، اذ يطعن زميلا ثوريا خشى منافسته على زعامة الحركة العمالية بسلاح مداره تناول نقود من ناشر بورجوازى •

وعلق باكونين على قرار طرده من «الدولية العمالية» بقوله «لنغتنم هذه الفرصة لنقدم آيات الاخلاص للمواطنين ماركس وانجلز الزعيمين الشهيرين للعصبة الشيوعية الألمانية • اننا نكن لهما احتراما أصيلا عميقا، لكننا وان أبدينا تقديرنا لما يؤديانه من خدمات جسام للدولية العمالية، لا نزال نعارض آرائهما التعسفية وأحكامهما الديكتاتورية • ونشجب أسلوبهما ودسائسهما وطعناتهما القذرة ••• وأكيدا انهما يمثلان أساليب الصراع السياسى الألمانى أصدق تمثيل، ولسوء الحظ أدخلا هذه الأساليب فى الحركة العمالية الدولية» •

ولا شبهة فى أن العداء الشخصى بين ماركس وباكونين يعكس الاختلافات العميقة الجذور فى المنحى التفكيرى لكلا الرجلين• وكان يمض باكونين ويؤرق تفكيره احساسه بسوء مآل أية ثقافة بشرية يُعاد تنظيمها وفق التعاليم الماركسية، وأن الدولة الماركسية العتيدة تئد الحريات وتستعبد المجتمع • واستخلص فكرته هذه من أن الماركسية تعهد بأمور دولتها الى جماعة صغيرة من المثقفين يوجهون الحركة الثورية بحكم كونهم عقلها وروحها • ووصم هذه القلة الحاكمة بالاستبداد والطغيان •

والحق أن باكونين بشَّر بثورة ضد سلطة العلماء، الا أنه لم يقصد تثبيط البحث العلمى، لكنه هدف لاستخدام العلم لسد احتياجات البشرية وضمان رخائها، وان هاجم سيطرة المتعلمين على شئون الحكم، وكان أول من صك تعبير «الارستقراطية المثقفة» •

وكان للبيئة تأثيرها على صياغة تفكير باكونين وماركس على السواء • اذ كان ماركس يعيش فى ظل دولة ألمانية يسيطر عليها الفكر والنظام• فاتخذ تفكيره عن الدولة صورة دولة قوية يدير شئونها رجال بلغوا أسمى درجات الوعى : فالألمان حققوا منجزاتهم ومآثرهم الحضارية فى ظل دولة، بل وبوساطتها • أما الدولة بالنسبة للعنصر السلافى، فكانت نقمة على الروسى، وأصبح عليه أن ينشد الحرية خارج نطاق الدولة وأن يعمل على تدمير سلطان هذه الدولة • وحسبى القول ان القوزاق ما هم الا فلاحون خرجوا عن سلطان الدولة والتمسوا الحرية بعيدا عن طاعتها • وكان سلطان الدولة يعنى لديهم الاسترقاق والاستغلال • ولذلك قام فَهْم باكونين للدولة على أساس التاريخ الروسى خاصة ومكابدات العنصر السلافى عامة •

ومن ثم استحال التقارب بين ماركس وباكونين •

٦ ـ مختارات من مجموعة أعمال باكونين

١ ـ المثالية والمادية

من تحصيل الحاصل القول بأن الارتقاء التدريجى للعالم المادى وبالمثل ارتقاء الحياة العضوية وتقدم الثقافة الانسانية على مر العصور ـ فرديا واجتماعيا على السواء ـ هو برمته حركة طبيعية اتخذت سبلها من البسيط الى المركَّب، من الأدنى الى الأعلى، من الأحط الى الأسمى• وتتطابق هذه الحركة مع تجربتنا اليومية وتسير وفق منطقنا الطبيعى وتلتزم التزاما تاما بقوانين فكرنا • وما فكرنا الا حصيلة نفس هذه التجربة اذ تشكله وتطوره •

ويختلف منهاج المثاليين عن فكرتنا هذه اختلافا تاما • اذ يغاير تماما التجربة البشرية ويخالف الادراك العام الشائع بين الناس جميعا • وهذا الادراك شرط لا بد من توافره لكفالة التفاهم الحق بين المرء وأخيه ، وهو ينطبق انطباقا تاما مع التجربة وينبعث عن ملاحظة الوقائع والظواهر • وان البصر بالتجربة لهو أساس المعرفة البشرية الجادة [1] •

ويتخذ أصحاب المدرسه الميتافيزيقية (الغيبية) سبيلا مباينا تماما • ولا نعني بهم أتباع عقيدة « هيجل » فحسب ، بل ينضوى تحت لوائهم أتباع المذهب الوضعي (فلسفة كونت) وجميع من يرفعون العلم الى مرتبة الهية • ويضاف اليهم من يجعلون من نظام من النظم الاجتماعية وثنا يكرسون له العبادة ويسعون لفرض عبادته على الأجيال القادمة • ويجمع أولئك وهؤلاء رباط واحد مداره أنهم يصدفون عن اعتبار الفكرة والعلم مظهرين لازمين للحياة الطبيعية والاجتماعية ، بل انهم يحصرون حياتنا البائسة هذه في نطاق ضيق فتتحدد زاوية رؤيتهم بالمظهر العملي من فكرتهم وبعلمهم القاصر [2] •

والمثالية — في جوهرها — دلالة القوة الغاشمة • فما المثالية في شكلها الديني أو الفلسفي الا داء يكمن خلفه الاستغلال المادي البشع •

أما المادية النظرية فانها — على العكس — الراية الحمراء للمساواة الاقتصادية وللعدالة الاجتماعية • وتنبسط رقعتها وينتشر تأثيرها بفضل المثالية العملية التي تعتنقها الجماهير المكدودة الجائعة التي تكدح لنوال أعظم قدر من الحرية وكفالة الحق الانساني لكل فرد في نَحي جميع الناس على الأرض [3] •

ومن ثم ، فان المثاليين الجديرين بهذا اللقب ليسوا مثاليي التجريد ، بل مثاليي الحياة ، لا يؤمنون بالمثالية المنحدرة من السماء ، ولكن بالمثالية النابعة من الأرض • ذلك لأن قوام المثالية النظرية أو اللاهوتية تضحية المنطق واهدار العقل البشرى والاعراض عن العلم • وبينما تعتبر المدرسة المادية تطور الانسان التاريخي ارتفاعا متدرجا ، اذا بالنظام المثالي يعده سقوطا مستمرا •

وجماع الاختلاف بين المادية والمثالية :

١ — تبدأ المادية من الحيوانية لكي تشيد الانسانية (وفق نظريه داروين في النشوء والارتقاء) • أما المثالية فتشرع من الالهية لتقيم عالما من العبودية تقضي فيه على الجماهير بالحيوانية الأبدية •

٢ — تجحد المادية الارادة الحرة وينتهي بها المطاف الى تمكين الحرية • أما المثالية فانها — تحت ستار العزة البشرية — تنادي بالارادة الحرة ، وتوطد السلطة على أنقاض الحريات بأسرها •

٣ — تنبذ المادية مبدأ السلطة وتنظر اليه — بحق — على أنه تذييل الحيوانية • وتؤمن على العكس بأن انتصار الانسانية غاية التاريخ الأساسية ومغزاه • ولن يتيسر تحقيق هذا الانتصار الا عن طريق الحرية •

(١) صفحة ١٤٩ من الجزء الثالث من الترجمة الفرنسية •

(٢) صفحة ٢٣٤ من الجزء الثالث من مجموعة الاعمال

(٣) صفحتا ٧٦ و ٧٧ من الجزء الثالث (باختصار)

وصفوة القول ؛ فأيا كان الموضـوع الذى تولى وجهك شطره ، ستجد المثالى فى حقيقـة أمره أقرب ما يكون الى المادية العملية ، فى حين تشاهد المادى ـ بكل تأكيد ـ يعتنق اعظم التطلعات والآراء مثالية ، ويصبو ويعمل لتحقيقها • ان المثالية طاغية الفكر ، مثلما أن السياسات طاغيـة الارادة•ان الاشتراكية والعلم اليقينى ـ وحدهما ـ يحترمان طبيعة الانسان وحريته •

بيد انه اذا كان للاشتراكية ـ وبخاصـــة اتباع اشتراكية الدولة فى المـــانيا ـ احترامهم لمدرسة فكرية ، فلا يعنى هذا انهم معصومون من الاخطاء ، الفينة بعد الفينة • فمن بين اباطيل الماركســـية مغالطة رئيسية تتبلـــور فى اقامة نظرياتها على مبدا لا شبهة فى صدقه ان نظر اليه على هدى وجهة النظر النســـبية ، لكن تهوى دعائم هذا المبدا تماما ـ وتنقض النظريات القائمة عليه بالتـــالى ـ اذ يلاحظه الباحث بمعـــزل عن الظروف الاخرى • ومدار هذا المبدأ ان التاريخ الانسانى والحياة البشرية بجميع جوانبها الثقافيه والخلقية والدينية والميتافيزيقية والعلمية والفنيه والسياسيه والتشريعية وكذلك التطور الاجتماعى، هذا كله ـ سواء فى المـــاضى أو الحـــاضر او المستقبل ـ انعكاس الظواهر الاقتصادية ونتيجـة لها • فبينما يستمسك المثاليـــون بأن الآراء تبـرز الوقائع وتسودها ، يصر الماركسيون ـ متفقـين تماما مع المادية العلمية ـ على أن الوقائع تولد الآراء وما الآراء الا الانعكاس المثالى للواقع• ومن الظواهر الاجمالية ، تؤلف الظواهر الاقتصادية المادية الركيزة الجوهرية والقاعدة الأســاسية ، فى حين أن الظواهر الأخرى ـ ثقافية وسياسية واجتماعية ـ تنبثق عن الأولى •

٢ ـ التنديد بالماركسية

لا يقتصر أمرنا على تحذير اخواننا السلاف من الانضمام الى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى تتسـلط عليه ديـكتاتورية ماركس وانجلز وتتبعه حفنة من الكتاب اليهود ، بل اننا سنبـذل قصارى جهودنا لصرف البروليتاريا السلافية عن الاتحـاد مع هـذا الحـزب • فان الطبقـة العاملة السلافية تقـدم بهذا على الانتحـار • فمـا حزب ماركس وانجلز الا حزب بورجوازى محض ، بالاضـافة الى كونه حزبا ألمانيا يعـادى الجنس السلافى (١) •

وكيف يتيسر للبروليتاريا الاســتيلاء على الدولة ؟

ليس أمامها سوى طريقين تسلكهما لنيـل هذه الغاية :

الأول ـ ثورة سياسية •

الثانى ـ استثارة لا تحيـد عن الشرائع والقوانين المقررة وتصبو لتحقيق اصلاح سلمى•

ومدار الحل الثانى ـ الذى أخذ به ماركس ولاسال ـ تحريك عواطف الرأى العام الشعبى واستفزازه للمطالبة بتطبيق مبدأ التصويت العام لانتخاب مندوبى الدولة والســلطات • فان فاز الشعب بهذا الحق ، يبعث بمندوبيه الى البرلمان الذى يصدر بدوره القوانين ويسن الشرائع • ولقد تصور هذان المفكران أن تنفيذ هذا الاقتراح يحيل الدولة لديكتاتورية الطابع الى دولة تنبثق

(١) وارد فى Statism and Anarchism. صفحتا ١٢٠ ، ١٢١ من الجزء الأول من مجموعة الأعمال)

(٢) وارد بصفحتى ٣٨ و ٣٩ من الجزء الخامس من المجموعة .

عن الشعب وتعبر عن ارائه وتنفذ رغباته • وجدير بالذكر ان اول اجراء تتخذه مثل هذه الحكومه انها تمنح اتحادات المنتجين والمستهلكين قروضا غير محدودة ، وبفضل هذه القروض يتاتى الكفاح المتصل الحلقات ضد رءوس الأموال البورجوازيه الى آن يتم تحقيق النصر ضدها واستيعابها ، وبانجاز عمليه الاستيعاب – كما يتخيل ماركس ولاسال وأتباعهما – يتم تغيير المجتمع تغييرا جذريا •

ولقد ورد هذا المنهاج فى البيان الشيوعى الذى اعلنه مركس وانجلز واشارا اليه بالعبارة التاليه « تتمثل اولى خطوات ثورة الطبقه العاملة فى ارتفاع البروليتاريا الى موضع الطبقه الحاكمة. ستعمد البروليتاريا الى تركيز ادوات الانتاج فى أيدى الدولة ، بمعنى صيرورة البروليتاريا الطبقه الحاكمة » •

بيد أن فكرة الدولة تضم بين طياتها السيطرة ، وتعنى السيطرة الاستغلال • وينبى هذا عن تناقض هزأة ، عن أوهام خداعه وبهتان فاقد الشعور • وتعنى فكرة الدولة بالنسبة للبروليتاريا فخ مهلك • فمهما يكن من أمر الشكل الشعبى الذى تنتحله الدولة ، تظل دائما تنظيما يستند على السيطرة والاستغلال ويلبث دائما ينبوعا أبديا للعبودية والبؤس • ومن ثم لاتوجد الا وسيلة مفردة لتحرير الشعب اقتصاديا وسياسيا وتهيئة السعادة والهناءة له الى جانب الحريه ، هذه الوسيلة هى الغاء الدولة : الغاء جميع الدول تماما ، وأن يقضى معها على كل ما يسمى سياسة •

ونوجه الى ماركس السؤال التالى :

بافتراض صيرورة البروليتاريا الطبقه الحاكمه ، فمن تحكم ؟

واجابتنا انه ستظل فى الوجود بروليتاريا أخرى قوامها ضعاف الفلاحين ، يخضعون لسلطان الدولة الجديدة التى يطلق عليها ماركس و انجلز اسم البروليتاريا • وجدير بالذكر ان ماركس يجعل من الفلاحين فئه من الناس تناهض بروليتاريته (بروليتاريا المدن عمال الصناعة) وتعاديها • ويضع ماركس الفلاحين فى ادنى منزلة ثقافية ويقدر لها ان تحكم عمال المدن • بمعنى أن يهيمن المصنع على الحقل اقتصاديا وثقافيا وسياسيا • واذا كان الجنس السلافى يتالف من الفلاحين ، فان ماركس يقدر ان يحكم الجنس الألمانى – الذى يتالف أساسا من عمال الصناعة ومن سكان المدن – الجنس السلافى البائس • ومعنى هذا ارتفاع الجنس الألمانى الى مرتبة السيادة على الجنس السلافى وصيرورة الالمان بورجوازيى أوروبا [1] •

وتقصد الماركسية باصطلاح حكومة الشعب أن يتولى حكم الشعب حفنة من النواب ينتخبهم الشعب بوساطة التصويت العام • وها هنا يتلاقى الماركسيون مع المدرسة الديمقراطية • وظاهر هنا عنصر التدجيل ؟ ذلك لأن الشعب لا يحكم بل تسيطر على أقداره أقلية ، وهذه الأقلية تسير غالبية الشعب الساحقة وفق مشيئتها وما يخدم مصالحها • أما قول الماركسية بأن هذه القلة تفد الى الوجود من محيط الطبقة العاملة ، فالواقع أن هذه القلة قد انفصلت تماما عن العمال الكادحين

---

(١) واضح أن باكونين مسير بالاعتبارات القومية البحتة حتى وهو فى مقام التبشير بمذهب الفوضوية العالمية .. أنظر رسالته « الدولة والفوضوية » .

وباتت تؤلف طبقة من الحكام لا تفترق قط عن الطبقة البورجوازية الحاكمه السابقه، ولن يخفى طغيانها بجمهرة الشعب واستبدادها بالكادحين ادعاء الماركسية بأنها تتألف من اشتراكيين متعلمين وأن الاشتراكية العلمية دعامة الدولة الماركسية العتيدة • فما هؤلاء الاشتراكيون الحكام الا ارستقراطية أصيلة صغيرة العدد أو فنيون ومتخصصون (تكنوقراطيون) ينتحلون المبادىء الاشتراكية للوصول الى الحكم والسلطان ، لا سيما وجمهرة الشعب تفتقر الى التعليم عاطلة من التثقيف السليم •

ويدرك الماركسيون هذا التناقض ويعلمون أن حكومة يهيمن عليها الفنيون والمتخصصون (وهى أشد حكومات العالم نكرا وأكثرها اجتراء على الحرية وأخسها) ستضم بين ثناياها أبشع أنواع الديكتاتورية مهما يكن من أمر الشكل الديمقراطى الذى تتخذه ستارا يخفى حقيقتها البغيضة • بيد أن الماركسيين يعزون أنفسهم بأن هذه الديكتاتوريه ـ فى صورة الدولة الماركسية العتيدة ـ موقوتة وأنها مرحلة انتقالية الى مرحلة يطلقون عليها « ذواء الدولة » تتحول فيه الدولة الى منظمة حرة تضم المصالح الاقتصادية والجماعات • وها هنا يكمن التناقض فى أبشع صوره : فلو كانت دولة الماركسيين دولة شعبية أصيلة ، فما الداعى لأن تحل نفسها على طول المدى ؟ واذا كان الحكم ضروريا لتحرير الشعب تحريرا حقيقيا ، فلم يطلق عليه الماركسيون دولة الشعب ؟ ويعنى هذا القول انه لتحرير الجماهير لا مناص من استعبادها [1]•

فالواقع ، تهدف الماركسية ـ أولا وأخيرا ـ لاقامة دولة تتركز فيها جميع السلطات وتتولاها طبقة من الفنيين والمتخصصين يتحكمون فى مصائر جمهرة الشعب •

٣ ـ فلسفة التاريخ

أولا ـ الصراع فى سبيل البقاء :

فى وسع كل انسان درس التاريخ أن يلاحظ أنه مهما قيل عن مثالية الصراعات الدينية واللاهوتية وجلالها وتجريديتها ، ففيها جميعا يكمن قدر ضخم من المصلحة المادية • ويتبين له أن لجميع الحروب العنصرية والقومية والطبقية غاية واحدة تتبلور فى السيطرة • والسيطرة شرط لازم لاستملاك الثروة وضمان بقائها ، لما تجديه من الاستمتاع بأطايب الحياة • فان نظر الباحث الى التاريخ البشرى من هذه الزاويه ، لألفاه مجرد استمرار للصراع العظيم فى سبيل البقاء ، وهو ـ مصداقا لقول داروين ـ القانون الأساسى للعالم العضوى [٢] • ويبدى لنا عالم الطبيعة صورة دموية مميتة للصراع الوحشى والدائم « صراع فى سبيل الحياة » • وليس الانسان وحده هو الذى يشن هذا الصراع ، فالحيوانات والكائنات جميعها تشنه • ذلك لأن نزعة التدمير كامنة فيها جميعا ، وكل فئة وكل نوع من الحيوان والنبات يعيش على حساب الآخرين ، فالواحد يزدرد الآخر : الأمر الذى يمكن معه اعتبار دنيا الطبيعة مذبحة ومأساة يستفزها الجوع • ان عالم الطبيعة حلبة الصراع المتصل الذى لا يعرف رحمة أو راحة •

(١) وارد فى رسالة الدولة والفوضوية

(٢) صفحة ٢١٩ من الجزء الاول من أعمال باكونين

وللأسف نعثر على المتبربرين أكلة لحوم البشر فى جميع الحضارات البشرية • اذ لا تخلو حضارة من الحضارات من حروب الابادة وحروب تنشب بين العناصر والأمم : حروب التوسع ، حروب للحفاظ على التوازن ، حروب سياسية ودينية ، حروب تشن باسم الآراء السامية حروب وطنية لتحقيق وحدة وطنية أعظم (الجامعة الألمانية والجامعة السلافية) •

فما الذى نعثر عليه تحت هذه العبارات الريائية التى تستخدم لتبرير هذه الحروب واضفاء صفة الانسانية عليها ؟ نفس الظاهرة الاقتصادية : نزوع البعض لأن يعيش ويهنأ على حساب الآخرين ، وما عدا ذلك غش وخداع • ولا يدرك الجهلة والبسطاء والأغبياء حقيقة الأحوال التى يترددون فيها ، أما القلة التى توجه شئون الدولة فانها تدرك تماما أن هذه الحروب يستثيرها حافز واحد : الأسلاب ، الاستيلاء على ثروات أناس آخرين واستعباد عمل قوم آخرين [1] • وليست المثالية السياسية بأقل خبثا ونفاقا وغباء من المثالية الدينية ، فما هى الا تطبيق دنيوى أو أرضى [2] •

واذا كان الناس عموما حيوانات آكلة لحوم فلقد بدأوا تاريخهم مجتمعا همجيا من أكلة لحوم البشر ، ويتطلعون الآن نحو المشاركة العالمية ، ونجدهم يتجهون صوب انتاج الثروة واستهلاكها جماعيا، ولكن نجد بين هاتين النقطتين المتضاربتين مأساة رهيبة دامية • فلقد ظهر الرق بعد انقضاء عهد المجتمع الهمجى ، وبعده أقبل عهد عبيد الأرض ، وتلاه عصر الأرقاء الأجراء الذى لابد أن يتبعه عصر رهيب من الاقتصاص ثم يقبل بعد ذلك بزمن بعيد عهد التآخى • هذه هى المراحل التى يجب أن يمر بها صراع الحيوان فى سبيل الحياة فى خلال تحوله التدريجى متجها نحو التنظيم البشرى للحياة [3] •

ومن المسائل المقررة علميا أن التاريخ البشرى - مثل تاريخ الأنواع الحيوانية الأخرى - قد بدأ بالحرب • ولهذه الحرب مراحل متعددة تتجه متوازية صوب مراحل حضارية متعددة كذلك • وأعنى بالحضارة تطور الارتقاء البشرى صوب كفاية احتياجات الانسان ووسائل اشباعها • والانسان بدأ حيوانا يقتات كل شىء ، ويعيش مثل كثير من الحيوانات الأخرى على الفواكه والنباتات وعلى صيد الأسماك والحيوان ، ولم يكن يفترق عن الوحوش التى تعيش على الصيد فى زمن هذا ، ولم يصنع بأية أدوات الا ما وهبته اياه الطبيعة • واهتدى بعد فترة طويلة لاستخدام سلاح فج كان العصا ثم الحجر • ثم أخذ يعمل الفكر فشرع يبتكر أنواعا جديدة من الأسلحة على مدى القرون والأحقاب ، فكان أن تحول الى صياد ، وبالأحرى أصبح وحشا كاسرا مدججا بالسلاح •

ولما شرع الانسان يرتقى مدارج الحضارة، وجدت الجماعات البشرية الصغيرة أيسر لها أن توفر القوت عن طريق قتل الكائنات الحية باستخدام الأسلحة • واذ تكاثر الناس بينما أخذت الحيوانات الصالحة لطعام الانسان تقل ، أقبلت البشرية على استئناس الماشية وطائفة من الطيور • وشاهدت فترة تربية الماشية تطورا فى

(1) ٢٥٤ - ٢٥٥ من الجزء الاول

(2) ٢٢١ من المرجع السابق

(3) المرجع السابق : ٢١٩ - ٢٢٠

الأسلحة التي بات الانسان يستخدمها للذود عن وجوده ضد جميع قوى الطبيعه التي كانت تعوق بالضرورة انتشار الانواع البشريه • وانتصر الانسان على قوى الطبيعه المعاديه له بفضل ملكه التفكير التي كانت تنمو وترتقي تدريجيا • ومن أخذت الثروات الطبيعيه تنضب ، استعان الانسان بتفكيره • اذ لم يعد يعتمد على قواه الجسديه • ولكن أصبح عقله دعامة حياته وحصافته عماد وجوده •

ولم تعد حضارة الرعي تكفل الأعداد المتزايدة من الجنس البشري ، مما ألجأه لابتكار مصدر جديد للعيش • فانصرف لزراعة الأرض وبالأحرى ، تحول البدو والرعاة على مر العصور والأحقاب الى زراع • وفي غضون هذه المرحلة من الارتقاء البشري، انبعث الرق بمعناه المعروف•

فالناس قد بدأوا حياتهم متوحشين يأكلون أعداءهم الذين يقتلونهم أو يأسرونهم • فلما أدركوا فائدة الحيوانات الخرساء استأنسوها عوض عن ذبحها ، وبمثل اهتدوا لاستخدام الرجال الآخرين عوضا عن قتلهم • ومن ثم ، لم يعد الأسرى يقتلون ويؤكلون ، بل يسترقون ويجبرون على العمل لاعانة أسيادهم • ذلك لأن عمل الرعاة سهل بسيط لايتطلب جهود أناس كثيرين • ومصداقا لهذا الرأي ، فنادرا ما يعرف المجتمع البدوي الأرقاء،بل ان وجودهم عبء عليه • ويختلف الحال في المجتمع الزراعي وأساسه الاستقرار والتوطن : اذ تتطلب الزراعة عملا شاق متصل الحلقات ، عهد به الرجال للنساء في بداية الأمر ثم الى الارقاء لما توافرت أعدادهم بفعل الحروب •